



"ولو كنّ النساءُ كمن فقدنا/ لفضّلتُ النساءَ على الرجال/ فما التّأنيثُ لاسمِ الشّمسِ عيباً/ ولما التّذكيرُ فخراً للهِلال!"

بهذه الكلمات رثى المتنبيّ شاعرُ البلاط إحدى قريبات الأمير سيف الدولة الحمّداني، فهل كان الرّداءُ رياءً، ومجرّد مجاملةٍ فيها منفعةٌ خاصّة، أم أنّه يعكسُ حقيقةَ المرأةِ وتقديرها آنذاك؟
وها شكسبير يقول: "المرأة كوكبٌ يستنيرُ به الرجلُ، ومن غيرها يبيتُ الرجلُ في الظلام!"

لقد نظرَ المتنبيّ الشّرقيّ وشكسبير الغربيّ بانفتاحٍ لمكانةِ المرأةِ وتعزّيزها، فليست تاءُ التّأنيثِ وصمةً عارٍ أو إشارة انتقاصٍ، بل تزيدها وقاراً وقدرًا، فكما أنّ الشّمسَ أمّ الضّوء، وقاهرةُ العتمةِ وآيةُ لحياتنا وأرزاقنا، وكما تعكسُ نورها على الهلالِ فيبدو مضيئاً، كذلك المرأةُ هي شمسُ البشريّةِ والموجودِ، إذ تضيئُ لمسةَ جمالٍ للطبيعةِ البشريّةِ والكونيّةِ، بحنانها وضوئها ودفيئها، وتكتملُ دورةُ الحياةِ بشروقها وغروبها، فيقول الموسيقار بتهوفن:

"أيّتها المرأةُ، إنّني لا أحسُّ بحُبالٍ وروعةِ الطّبيعةِ، إلّا عندما تلمّسين أزهارها بأناملِكِ الجميلة!"

فهل قصدَ بتهوفن الطّبيعةَ بتضاريسها، أم شخصه وطبيعةَ الجسدِ، ليؤكّد بذلك مقولةَ أخرى، بأنّ "الرجلَ جذعُ الشّجرةِ وساقُها وأوراقُها، أمّا المرأةُ فهي ثمارُها؟" وإن كان صدقاً "من ثمارهم تعرفونهم"، فهل عرفنا عن المرأةِ إلّا ما يوجبُ أن نفخر بها ونمجدها ونكرمها، تلك من سمّت بأنوثتها حُباً وعطاءً، وعُلت بأمومتها حناناً وتضحيةً؟
المرأة: هذا المخلوقُ اللينُ، أمكنها أن تتكيّفَ وبيئتها بكلّ أناةٍ وجلدٍ، وقد وهبها الباري قدرةً فائقةً على تحمّلِ الظّروفِ البيئيّةِ الصّعبةِ كي تتأقلمَ معها، ليس من منطلقِ ضعفٍ أو رضاها بمهانتها، وإنّما محاولةٌ منها بصبرها وحُكمتهَا، أن توازنَ كلَّ خللٍ قد يودي بالأسرةِ والمجتمعِ، فتتحمّلُ بتضحيّتها من أجل الآخرين، لأنّها لا تجدُ من ينصّها في مجتمعٍ أدمن على قهرها وإذلالها، ولما شكّ أنّها دوماً تحلُمُ رغمَ كلِّ المآسي العاصفةِ بها، أنّها ستحظى بواحةِ الأمان فلا تنكسر، كما يقول الفيلسوف (زواتلي): "المرأة كالعصنِ الرطبِ، تميلُ إلى كلّ جانبٍ مع الرياح، ولكنّها لا تنكسرُ في العاصفة!"

فهل المرأةُ شجرةٌ أم فنٌّ أم ثمرٌ، أم هديّةٌ ربّانيّةٌ كرّمها الله فجعلَ منها أمّ البشريّةِ، كما يقول الفيلسوف سقراط: "المرأة أخلقى هديّة قدمها الله إلى الإنسان؟"
و "سعيد فريحة" يصرّح بملءِ كبريائه: "المرأة في نظري هي التي تجعلُني أحسُّ بكياني كرجل!"

فهل واهبةُ الحنانِ والمعاطفةِ، وزارعةُ حقولِ الحياةِ بابتساماتها المورديّة، يمكنها أن تعطرَ القلوبَ الممتعبةَ بأريجِ المسّعادةِ والطّمأنينةِ دائماً؟ وإن كانت هي منبعُ البهجةِ والمسّعادةِ، كما يقول كونيغزويوس: "المرأة أبهجُ شيءٍ في الحياة"، فهل يؤمنُ الرجلُ الشرقيُّ أن المرأةَ ليست من سقط المتاع والميراث، ولا تخضعُ شرعاً للضربِ والمهجرِ والحرمانِ والتهديدِ والموعيدِ، كما لا يمكنُ الاستغناء عنها؟

بلزك يؤكد: "المرأة مخلوقٌ بين الملائكة والبشر، وأقرب الكائنات للكمال!" فهل نقرُّ أن لها حقاً في إنسانيّتها، إضافةً إلى واجباتها، وأنّها قد تفوق الرجلَ علماً وصداقاً وجدواً؟ نعم، مدرسةُ الأجيالِ هي، كما أشادت بها الرسالاتُ السماوية، وكما بَجَّ لها فلاسفةُ الأرضِ وشعراؤها وأدباؤها، فهي رديارد كبلنج قال: "المرأة وحدها التي علمتني ما هي المرأة!" وأناطول فرانس قال: "المرأة هي أكبرُ مربّيةٍ للرجل، فهي تعلّمهُ الفضائلَ الجميلةَ، وأدبَ السُّلوكِ ورقّةَ الشّعور!" وشاعرُ النيلِ حافظُ إبراهيم يمجّدُ إيمانَه: "المأم مدرسةٌ إذا أعددتَها/ أعددتَ شعباً طيباً للأعراق!" هذا الكيانُ المدعو "امرأة"، قد يشكّلُ نصفَ المجتمعِ والأمةِ إن لم يكن أكثر، في قرعِ ناقوسِ منبّهٍ جمالِ الدينِ الأفغاني: يا بني أمي، "لا أمةٌ بدونَ أخلاقٍ، ولا أخلاقٌ بدونَ عقيدةٍ، ولا عقيدةٌ بدونَ فهمٍ!" نقطةُ مركّبةِ الأبعادِ والذاتِ جاهتْ انبثقتْ مُجَلِّلةً، فهل حقاً نفتقرُ إلى العقيدةِ، أم أنّها مُتواجدةٌ مُغيّبةٌ، لكنّنا نفتقرُ إلى فهمِها والمتحلّي بها، فنزدانُ بفضائلِها حين نتخلّقُ بها؟

هل يمكنُنا أن نصحّحَ أحوالَ مجتمعاتنا فكرياً، لنخرجَ عن عاداتنا المتوارثةِ الباليةِ بشأنِ المرأةِ، ونُحسِنُ التّعاملَ معَها كإنسانٍ وكيانٍ؟ كيف يتأتّى لنا الصّلاحُ والإصلاحُ؟

أسوقُ قصّةً طريفةً شاعت بين مجالس المتأدّبين، من كتاب "محاضرةُ الأدباء" لمحيي الدّين بن عربي، حول أثر البيئةِ على تركيبةِ البشر تقول:

أنّ عليّ بن الجهم عاش في شبابهِ في بيئةٍ صحراويّةٍ قاسيةٍ، وعلى الرّغم من رشاقيّةِ المعاني والمشاغبيّةِ المُفدّةِ التي تاجّجت في صدره، إلّا أنّ البيئةَ الصحراويةَ كان لها أثرٌ في بناءِ شخصيّه ومفرداتِهِ وألفاظِهِ الشّعريّةِ، فجعلته جافاً قاسياً، وحين أنشد المتوكّل قال:

أنت كالكلب في حفاظك للودّ والالتيس في قراع الخُطوب/ أنت كالذئب لا عذم ذاك دلوّاً من كبار الدّلائل كثير الذّؤوب
أجمع الحضور على ضربه، لكن المتوكّل أدرك بنباهتِهِ حُكم البيئةِ في تشكيلِ شعريّتهِ، فأصدر أمراً بأن يتم منحه بيتاً في بستانٍ قريبٍ من الرّصافةِ، في حيٍّ أخضر يانع، يطل على النّاس والسوق والنّضرة والمجال، وحين دعي علي بن الجهم بعد فترةٍ، أنشد شِعراً متميّزاً:

عيون المها بين الرّصافةِ والجسر جليبا الهوى من حيث أدري ولا أدري
أصيب الجمع بالدهشة لهذا الانقلاب في التعبير، فقال أمير المؤمنين: إنّني أخشى عليه أن يذوب رِقّة!

وعسى أن يذوب رِقّةً وصداقاً في إدراكِ المعبرة، وما يرمي إليه قولُ مُترجم كتاب "كليلة ودمنة" عبدالمه بن المقفع: المرأة الصّالحة لا يعدلها شيء، لأنّها عون على أمر الدنيا والآخرة!